الْحَدَاثَةُ الْبَدِيلَةُ فِي مَشْرُوعِ الْمُفَكِّر طَهَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ

د. فاطمة محمد عبد الله لملوم
كليَّة الآداب/ جامعة سرت/ ليبيا
fatmamohamed1977@yahoo.com

المُلَخَّصُ:

يَتَوجَّه هذا البحث إلى إبراز الحداثة البديلة عند طه عبد الرحمن، على غرار نقده للأسس التي تقوم عليها الحداثة الغربيَّة باعتبارها الهاجس المشترك عند بعض المفكِّرين العرب المعاصرين، فقد كرَّس جهوده لتقديم رؤية جديدة لتأسيس حداثة بديلة أطلق عليها اسم حداثة إسلاميَّة مبدعة مستقلَّة لها شروط علميَّة، ناقداً مختلف الرؤى الفلسفيَّة التي طُرحت حول مسألة الحداثة في الفكر العربي المعاصر بطابعها الغربي، التي أُسست على القطيعة من خلال تبنِّيها لمشروع قائم على العقلانيَّة والعلمانيَّة (الذاتيَّة) في الوقت الذي تسعى فيه الحداثة البديلة إلى التأكيد على هذا الاختلاف بين الفكر العربي المعاصر والفلسفة الغربيَّة وفكرها الحداثي، من هنا ارتأينا إبراز موقف طه عبد الرحمن من الحداثة الغربيَّة من خلال نقده للأسس المكوِّنة لها، واتخاذ هذا النقد وسيلة لإبراز الحداثة البديلة.

الكلمات المفتاحيَّة: الحداثة الغربيَّة_ طه عبد الرحمن_ روح الحداثة_ الإبداع.

المقدِّمة:

تُعَدُّ الحداثة من أهم القضايا المطروحة الحاليَّة في الفكر العربي المعاصر، باعتبارها مشروع فكري يهدف إلى تغيير العديد من المفاهيم والأفكار في كافَّة مجالات الحياة الاقتصاديَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة، فالحداثة بمفهومها هي الدعوة الى العقلانيَّة والتحرر من مختلف القيود، والإعلاء من قيمة الانسان وعدم محدوديَّة سلطة العقل وتجاوز القديم مع السعي إلى تغييره، ويعتبر الغرب هو نقطة انطلاق وولادة الحداثة، فقد نشأت في بيئة مخالفة للبيئة الإسلاميَّة القائمة على تصوُّرات ربانيَّة عن الكون والحياة.

فتعدَّدت الدراسات والمواقف بتعدد المرجعيَّات الفكريَّة لهذا التيار فقد كانت اجتهادات العديد من المفكِّرين على الساحة الفكريَّة العربية والإسلاميَّة المعاصرة مختلفة فيما بينهم، والتي كان يمثِّلها المفكِّر طه عبد الرحمن* من خلال عرضه للعديد من المؤلَّفات التي تناولت إشكاليَّات الحداثة والعقلانيَّة والعلمانيَّة وغيرها، فقد تناول طه عبد الرحمن هذه القضيَّة من منظور مختلف كل الاختلاف عن مفكري عصره الآخرين، منهم محمد اركون، محمد عابد الجابري، عبد الله العروي، وغيرهم، وهو منظور ينتقد فيه الأفكار ووجهات النَّظر السائدة عن الحداثة في الوطن العربي، منطلقاً إلى إقامة رؤية مختلفة تماماً عن السائدة فكريَّاً ومعرفيَّاً، ساعياً إلى إقامة حداثة أخلاقيَّة معاصرة بديلة مختلفة تماماً عن الفكر الغربي بمناهجه وتطبيقاته، مطبِّقاً روح الحداثة في المجتمع العربي المسلم، برؤية جديدة مبنيَّة على قيم أخلاقيَّة، ولمعرفة هذه الرؤية البديلة لطه عبد الرحمن وجب علينا أنْ نستعرض الأسس التي قامت عليها حداثة الفكر الغربي وبناءً على رفضه لها طرح حداثته البديلة.

مشكلة البحث:

ما معالم الحداثة البديلة التي دعا إليها طه عبد الرحمن، والتي على ضوئها وجَّه نقده لأسس الحداثة الغربيَّة؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الآتية:

1_ التعرف على الكيفيَّة التي نقد بها طه عبد الرحمن الحداثة الغربيَّة في دراساته الفكريَّة من خلال آراء البعض من الفلاسفة.

2_ التعرُّف على روح الحداثة البديلة التي طرحها في دراساته.

3_ توضيح التطبيق الإسلامي لروح الحداثة عند طه عبد الرحمن.

تساؤلات البحث:

ومن هذه الإشكاليَّة تتفرَّع التساؤلات الخاصَّة بالبحث منها:

1_ ما الأسس التي انتقدها طه عبد الرحمن في الحداثة الغربيَّة؟

2_ ما روح الحداثة التي طرحها طه عبد الرحمن في دراساته؟

3_ ما التطبيق الإسلامي لروح الحداثة عند طه عبد الرحمن ؟

أهميَّة البحث:

تأتي أهميَّة هذا البحث في أنَّ هذه القضيَّة لا تزال قائمة ومحط اهتمام ودراسة لدى النخبة الثقافيَّة في العالم العربي، وفقاً لذلك قمنا بهذا البحث للتعرُّف على رؤية هذا المفكِّر(طه عبد الرحمن) بالرغم من تعدُّد الدراسات حول هذا الموضوع لأهميته في الفكر العربي الإسلامي إلَّا أنَّ هناك العديد من هذه الدراسات تشابهت حول الموضوع ولكن طُرحت بأفكار مغايرة عن سابقتها، فتطرقنا بداية البحث بالأسس والمفاهيم التي تأسَّس عليها الفكر الحداثي الغربي، والتي انطلق طه عبد الرحمن من خلالها لعرض الحداثة البديلة، ودورها في العالم العربي الإسلامي.

منهج البحث:

المنهج المتبع في البحث، هو المنهج التحليلي النقدي، لتحليل بعض المفاهيم في البحث، معتمدين على أهم المصادر الخاصة بالحداثة ومفهومها وآثارها، إضافةً إلى كتب طه عبد الرحمن ودراساته حول ذلك.

وتضمَّن البحث المباحث الآتية:

المبحث الأول: نقد أسس الحداثة الغربيَّة عند طه عبد الرحمن.

المبحث الثاني: حداثة تقليد لا إبداع.

المبحث الثالث: روح الحداثة عند طه عبد الرحمن "الحداثة البديلة"

المبحث الرابع: التطبيق الإسلامي لروح الحداثة عند طه عبد الرحمن.

المبحث الأول: نقد أسس الحداثة الغربيَّة عند طه عبد الرحمن:

يُعَدُّ المفكِّر طه عبد الرحمن من المفكرين العرب حيث توجَّه إلى هذا التيار الغربي لدراسته وتتبُّع مساراته، والوقوف عند آثاره ونتائجه وبيان قصور آليَّاته وتوجُّهاته الفكريَّة، رافضاً الانغماس في منطلقات هذا التيار

الغربي وما يثيره من ثورات ناتجة عن الحرية المطلقة للعقل، الذي "ينبغي أن يعقل هو الآخر ويقيد وإلَّا أفضى إلى نقيض مقصودة."[1]

الأساس الأول: العقلانيَّة

لا يمكننا تقديم تصوُّر عن الحداثة الغربية ما لم نبدأ بأحد أهم أسسها وهو العقلانيَّة، فهي إخضاع كل شيء لقدرة العقل وإمكانيَّاته، فقد أخذ الإنسان الغربي من العقل مبدأ مرجعي لإصدار أحكامه ناكراً القدرة الإلهية وجاء رفض طه عبد الرحمن لهذا المنطلق وهو العقلانيَّة أو التجريبيَّة حسب ما يسميها، أنَّه مخالف للدين الإسلامي المرتبط بالإيمان بالرسالة الإسلاميَّة، فالإنسان الغربي يأخذ من العقل مبدأ مرجعي لإصدار أحكامه وينكر القدرة الإلهيَّة في حين أنَّ العقل المسلم لا ينفرد بنفسه دون الوحي الإلهي، فخاصيَّة هذه العقلانيَّة الغربية تستأثر بالإنسان من دون الوحي وبالتالي فهي تتنافى مع الرسالات وما جاء فيها.

مشيراً إلى ذلك بقولة: "خاصيَّة هذه العقلانيَّة أنَّها تستأثر بالإنسان من دون الوحي، بالتالي فهي تتنافى مع الرسالة الدينيَّة والعقلانيَّة بهذه الصورة عند تسميتها بالعقلانيَّة المجرَّدة فتجريديتها تتمثَّل في الاشتغال بالعقل الإنساني دون الاشتغال بالوحي الإلهي."[2] من هنا انتقد العقلانيَّة التي تنتهي إلى إنكار القيم، وقد أوضح في كتابة سؤال الأخلاق "بأنَّ موضوع العقلانيَّة قد كثر الخوض فيه حيث تواردت عليه ضروب الشبهة والإشكال وتطرَّقت إليه صنوف من الخلل والفساد وهذه الضروب والصنوف التي تحتاج إلى استجلاء أوصافها وبيان أسبابها وتحديد آثارها حتى تحترز من الوقوع فيها وتهتدي إلى طريق العقلانيَّة يكون موافقاً للأخلاق الإسلاميَّة."[3]

فينطلق طه عبد الرحمن من أساسيَّات يعتبرها حقائق لكل من يريد النهوض بواقع العالم الإسلامي والعربي، بأن يتعامل مع العقلانيَّة بمساواتها بأخلاق الدين الإسلامي، يقول حول ذلك: " إنَّ التعلُّق بالعقلانيَّة تّساوى فيه من يتمسَّك بأخلاق الدين الإسلامي ومن يميل عن هذا الدين متبعاً العمل بأخلاق أخرى، وكذا من ينزل منزلة بين هذين الطرفين منتقياً بعض الأخلاق من الدين الإسلامي والبعض الآخر من مذاهب غير إسلاميَّة أو غير دينيَّة، بحجة مسايرة التطوُّر والاستجابة لمقتضى التغيير."(4) منطلقاً بفكرته هذه من واقع الاشتغال بها من قبل العديد من المفكِّرين والمنظِّرين العرب من مؤيِّد لها ورافض لها من جانب آخر، فالجابري يرى أنَّ الدعوة إلى تجديد الفكر العربي أو تحديث العقل العربي ستظل مجرَّد كلام ما لم تستهدف إلى كسر بنيَّة العقل المنحدر إلينا

من عصر الانحطاط، والذي يقصد به إحداث قطيعة أبستمولوجية كاملة مع بنية العقل العربي في عصر الانحطاط وامتدادها إلى الفكر الحديث والمعاصر"(5) ومن جانب آخر نجد هناك من يرى أنَّ الحداثة ارتبطت بالعلم والتكنولوجيا وابتعدت عن القيم الأخلاقيَّة بالتالي يصبح التمييز بين الخير والشر، والعدل والظلم أمراً صعباً، فالحداثة ليست مجرَّد استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا، بل هي استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا المنفصلة عن القيمة، وهذا البعد هو بعد مهم لمنظومة الحداثة الغربيَّة، ففي عالم متجرِّد من القيمة تصبح كل الأمور متساوية، ومن ثم تصبح كل الأمور نسبيَّة، وحين يحدث ذلك فإنَّه من الصعب الحكم على أي شيء، ويصبح من المستحيل التمييز بين الخير والشر، والعدل والظلم، بل وبين الجوهر والنسبي، وأخيراً بين الإنسان والطبيعة أو الإنسان والمادة.(6)

فتكون رؤية طه عبد الرحمن لبعض مؤيدي الحداثة الغربيَّة متوهمون في أنَّها حقيقة دائمة، وخالية من النقد والتمحيص، فيرجع العقلانيَّة إلى أنَّها مجرَّد نظرة مخالفة للشريعة الإسلاميَّة إذا اعتبرت هي المرجعيَّة الأساسيَّة للإنسان، في إصدار أحكامه، فالأخلاق كما يشير، هي وحدها التي تجعل أفق الإنسان مستقلاً عن أفق البهيمة،، فالأخلاق هي الأصل الذي تتفرَّع عنه كل صفات الإنسان، والعقلانيَّة التي تستحق أن تنسب إليه ينبغي أن تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي.(7) مؤكِّداً طه عبد الرحمن على أنَّ المسلمين لا يملكون إلَّا ما انطوى عليه الإسلام من القيم الاخلاقيَّة والمعاني الروحيَّة لتثبيت وجودهم وهو ملك ثمين في نظره لأنَّ عالم المستقبل سوف يشهد حدثين هامين أحدهما انهيار النظريات الأخلاقية والانساق المعيارية والدساتير السلوكيَّة الكبرى التي توجِّه الحداثة الغربية.

وبناءً على ذلك يُصرِّح طه عبد الرحمن بأنَّنا نحن بحاجة إلى أخلاق الإسلام لمواجهة تحديَّات الحداثة فالحل الأنسب للمشاكل التي تواجهنا ولمشاكل الحداثة هو تخليق الحداثة بحيث يكون البديل هو الحداثة المعنويَّة الأخلاقيَّة كمبدأ وكمنتهى،(8) والجدير بالذكر أنَّ ما جعل طه عبد الرحمن يربط بين الأخلاق الإسلاميَّة والحداثة من منظوره أنَّ الحداثة بحاجة إلى أخلاق الدين لتتوافق مع مجتمعنا ولدرء آفاتها ممَّا جاءت به الحداثة الغربيَّة من أسس أضرَّت بالإنسان في المجتمعات العربيَّة فالحل الأنسب في نظره هو أخلاق الإسلام كونها أخلاق عميقة لا سطحيَّة وشاملة لا محدودة.(9)

الأساس الثاني: العلمانيَّة أو الدنيويَّة:

وهو من المفاهيم التي طالها اللَّبس والغموض في تاريخ الفكر البشري بدءاً من فصل الدين عن الدولة، ثم فصل الدين عن العلم مروراً باستبعاد الدين عن مجالات الحياة كافَّة، ويقف طه عبد الرحمن في كتابه عند هذا المفهوم كأساس من أسس الحداثة الغربيَّة فهو لا يحاول تحديد المفهوم من زاوية دينيَّة أو سياسيَّة بل يسلك تجاهه مسلكاً نقديَّاً ليبرهن على مدى انحراف المفكِّرين المقلِّدين باستخدامه في دراساتهم الفكريَّة بما لا يتناسب مع الفكر العربي الإسلامي، فيطلق عليها طه عبد الرحمن مسمَّى الدنيانيَّة التي أنهت الأخلاق والعلم والفن والتربية، واستخدمت في الغرب نتيجة لسيطرة وفساد باباوات الكنيسة الكاثوليكيَّة الأمر الذي أدَّى بدوره إلى فصل السياسة عن الدين، فأطلق طه عبد الرحمن عن هذا الانفصال السياسي والأخلاقي اسم واحد جعل له مقابل عربي وهو العلمانيَّة.[10] حيث إنَّ إطلاق التسمية نفسها على كلا الانفصالين من وجهه نظر طه عبد الرحمن غير دقيق لسببين:

أولهما: الانفصالان ليسا من الدرجة نفسها ولا من الفترة نفسها، فانفصال الأخلاق عن الدين كان أسبق من انفصال السياسة عن الدين.

ثانيهما: إنَّ هذه التسمية قد تشعر بوجود علاقة بين السياسة والأخلاق، ولكن بعد ظهور ميكافلي وكتابة الأمير الذي حدَّد فيه الصفات الأخلاقيَّة التي يجب على الحاكم السياسي التحلِّي بها، بالتالي أثبت عدم حقيقة هذه العلاقة.[11] من هنا أظهر طه عبد الرحمن مصطلح الدهرانيَّة، إشارة إلى فصل الدين عن الأخلاق، ومصطلح العلمانيَّة إشارة إلى فصل الدين عن السياسة، ومصطلح الدنيانيَّة إشارة إلى فصل الدين عن جميع مجالات الحياة،

وعليه فلزم أن تكون الدهرانيَّة أقوى من العلمانيَّة لأنَّها الفصل بين الأخلاق والإيمان، والفصل بين الدين والوحي، والفصل بين الدين والإيمان، بل والفصل بين الاعتقاد والإيمان.[12] وللدنيانيَّة صور أخرى عند طه عبد الرحمن، وهي ما بعد الدهرانيَّة أو الشرود، في مقابل الخروج عن الدين الذي أسماه بالمروق أو بؤس الدهرانيَّة، فيقول في كتابة حول ذلك: " إذا كان الدهراني مارقاً، فقد أضحى ما بعد الدهرانيَّة شارداً، ومنشأ الدهرانيَّة هو إنكار آمريَّة الإله اثباتاً لآمريَّة الإنسان، بينما منشأ ما بعد الدهرانيَّة هو إنكار شاهديَّة الإله إثباتاً لشاهديَّة الإنسان."[13] وفقاً لذلك فقد عرض طه عبد الرحمن نقده للعلمانيَّة وقبلها العقلانيَّة وتبيان محاذيرها فقد أخذت حيِّزاً مهماً في كتابيه (روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلاميَّة) ، وكتابة الآخر(الحوار

أفقاً للفكر). فالعقلانيَّة بالنسبة لطه عبد الرحمن لا تتخذ إلَّا العقل سلطاناً مطلقاً في حين أنَّ الوحيد المقابل للعقل في الحكم على الأشياء بالنسبة للمسلم هو الوحي أو الرسالة، موضِّحاً هذا الخلل في العقلانيَّة ويتبعه الخلل الثاني فيما يتعلَّق بمبدأ العلمانيَّة، يقول حول هذا المبدأ: "إنَّها مقتصرة على الدنيا فقط، دون الآخرة وهذا المبدأ يستقطب كل اهتمام الحداثي، بينما المسلم اهتمامه بالدنيا مرتبط بالآخرة بل إنَّ اهتمامه بالآخرة هو خادم لحياته الدنيويَّة."[14]

فقد أفرزت الحداثة من خلال منطلقاتها العديد من المفاهيم بين المفكرين كلٌ يصوغها حسب مشروعه الفكري، إلَّا أنَّ طه عبد الرحمن من المعارضين والرافضين لما قدَّمه مقلِّدي الحداثة الغربيَّة من دعاوي للتجديد والتغيير من منطلق قولة، إنَّ الحداثة لا تُنقل من الخارج وإنَّما تُبتكر من الداخل."[15]

المبحث الثاني: حداثة تقليد لا إبداع:

لقد حمل طه عبد الرحمن هاجس الحداثة في الفكر العربي المعاصر، فمشروعة كما نعرف هو إحياء للإبداع والاجتهاد في الفكر الإسلامي العربي ودرء لآفة التقليد والتبعيَّة، فانحصر جهده في نقد أنماط التقليد الغربي التي جعلت من الخطاب الحداثي العربي عقيماً لا روح فيه، محاولاً رسم معالم المجتمع المسلم الذي غابت فيه معالم الإبداع واصفاً أحد الكتاب بأن ما قام به طه عبد الرحمن حرباً على المشروع الحداثي، فقد حاول خرق حجاب التقليد الذي ظل مستبداً بالعقل الفلسفي العربي بما ينيف عن ألف سنه، وتمكين المتفلسف العربي من القدرة على التصوُّف في المنقول الفلسفي على الوجه الذي يوافق مجاله العربي أو اختياره الفكري.[16] فقد دعا إلى ضرورة التخلُّص من التقليد الغربي للحداثة بدعوة منه إلى الإبداع الفكري لأنَّه باستطاعة المفكِّر العربي الإسلامي أن يبدع حداثته من دون إسقاط مفاهيم الغرب وتقليدهم، فالحداثة من منطلق أنَّها تطبيقاً إبداعيَّاً لا تنال إلَّا بطريقة الإبداع فيتوسَّع إبداع المفكِّر لمختلف المجالات، وليس للإبداع وجه واحد يقف عنده وإنَّما وجوه عدة فلا وجود لحداثة إلَّا مع وجود الإبداع لا مع وجود الاتباع.[17]

لكن فلاسفة الغرب لديهم النظرة المخالفة لذلك، فقد يؤكِّد جان بودريار، أنَّها أخلاق شرعيَّة للتغيير متخلية عن القديم، أيديولوجيا التغيير من أجل التغيير.[18] في الوقت الذي قدم فيه طه عبد الرحمن نقده للتقليديين في كتابة روح الحداثة، فهو لا يعترف بوجود حداثيُّون عرب لأنَّهم في نظرة مجرَّد مقلدون.[19] فعلى المفكِّر العربي إنْ لزم الأمر إحداث ثورة تغيير، أي تقويض مبادئ القول الفلسفي العربي ومسلماته التي لطالما ارتكن

إليها، بل دافع عنها المدافعون في المحافل واعتبارها الخيار الأوحد للتفلسف والإبداع.[20] الأمر الذي جعل النظرة إلى مشروع طه عبدالرحمن محاولة بناء مقوّمات الإبداع والتحرُّر من براثن التقليد والحداثة، قائلاً عنه يوسف بن عدى، "إنَّ طه عبد الرحمن دعا إلى قراءة التُّراث وفق منطق التداول الإسلامي العربي."[21]

ومن هذه النظرة الانتقاديَّة للحداثة، فكيف تكون طريقة التعامل معها؟ يجيب على ذلك بقوله : "ينبغي أن ننطلق ممَّا نستطيع أن نشترك فيه مع أهلها، والمشترك الأول هو الإبداع فقد برهنوا أنَّ الحداثة إبداع، فينبغي أن نكون مبدعين مثلهم، فإذاً ينبغي أنْ نستعيد قدراتنا الإبداعيَّة من أسلافنا كما استعادوها هم من اليونان واللاتين حتى نكون حداثيين.[22] إذاً الشرط الأول هو الإبداع، فالإنسان لا يكون حداثيّاً إلَّا إذا كان قادراً على الإبداع، بذلك يكون طه عبد الرحمن ليس ضد النقل عن الآخرين، ولكن مشروط هذا النقل عنده بالإبداع وإلَّا يعتبر ذلك تقليداً، يصرِّح ذلك بقوله: "ينبغي للحداثي العربي الذي يأخذ من الغرب – وأنا بدوري آخذ من الغرب– أن يُبدي أثناء عمليَّة النقل ملامح إبداع يخصه."[23]

فيقسم طه عبد الرحمن المفكِّرين المقلِّدين إلى فئتين، وهما:

أ. مقلِّدة متقدِّمين: هم الذين يتعاطون إسقاط المفاهيم الإسلاميَّة التقليديَّة على المفاهيم الغربيَّة الحديثة، كأن يسقطوا مفهوم الشورى على المفهوم الديمقراطي– أو مفهوم الأمة على مفهوم الدولة– أو مفهوم الربا على مفهوم الفائدة لكنهم يقعون من حيث لا يشعرون، ويصيرُّون على التدرُّج إلى رد المفاهيم المنقولة إلى المفاهيم المأصولة فينتهون بمحو خصوصيَّة المفاهيم المنقولة.[24]

ب. مقلدة متأخِّرين: يسقطون المفاهيم الغربيَّة على المفاهيم الإسلاميَّة كأن يسقطوا مفهوم العلمانيَّة على مفهوم العلم، ومفهوم الحرب الدينيَّة على مفهوم الفتح، وهكذا ينقلون المفاهيم المأصولة إلى المفاهيم المنقولة، فينتهون بمحو خصوصيَّة المفاهيم المأصولة.[25] وكلا النوعين لا إبداع فيهما.

المبحث الثالث:روح الحداثة عند طه عبد الرحمن (الحداثة البديلة)

تعدَّدت الرؤى والمواقف بتعدُّد المشاركات الفكريَّة اتجاه هذه الموجة، إلَّا أنَّ طه عبد الرحمن مقابل نقده لهذا الاتجاه وما قدَّمه من دراسات مختلفة تناول فيها إشكالات الحداثة والعقلانيَّة والعلمانيَّة وغيرها ونقده لها، مقدِّماً لنا مقابل ذلك روح الحداثة، ولكن قبل الخوض ف تفاصيلها فلابدَّ لنا من بيان الفرق بين روح الحداثة

والحداثة الغربيَّة، فلو أشرنا إلى روح الحداثة نجد بُعدها الكامل عن الحداثة الغربيَّة، بل إنَّها تتعدَّاها.26 بحسب وصف طه عبد الرحمن، ودلائل ذلك أنَّ مقوّمات الحداثة تقوم على الرؤية الذاتيَّة للوجود، والنزعة العقلانيَّة في المعرفة، والقول بالعدميَّة والنسبيَّة في مجال القيم.[27] فهي تضفي الطابع النسبي على الوجود وسيادة الذات والعقل على هذا الوجود باسم مركزية الإنسان وسلطته المطلقة، وتبعاً لذلك فإنَّ هناك فئة من المفكِّرين العرب ممَّن دعوا إلى استقبالها، كما هي عليه أي كما وجدت في أوروبا كنموذج للتطبيق، بالرغم من انتقادهم لنقلها بحذافيرها، إلا أنَّهم لم يقدِّموا البديل لها، فنجد الجابري يقول حول ذلك: "لا نستطيع الدخول في حوار نقدي تمرُّدي مع معطيات الثقافة العربيَّة لكونها لا تنتظم في تاريخها، إنَّها إذاً تقع خارجها وخارج تاريخها لا تستطيع أن تحاورها حوار يحرك فيها الحركة داخلها، إنَّها تهاجمها من خارجها ممَّا يجعل رد الفعل الحتمي هو الانغلاق والنكوص. [28] في الاتجاه نفسه يؤكِّد اركون أنَّ لاستقبال الحداثة الأوروبيَّة عند العرب إفرازات ونتائج سلبيَّة تستحق الدراسة والاهتمام، بل وتستحق تحريات ميدانيَّة ودراسات علميَّة نظرية واسعة لكي يفهم كيف استقبلت الشعوب الأخرى هذه الحداثة التي ولدت في سياق آخر وتاريخ آخر عبر تاريخها.[29]

في الوقت الذي يدعو فيه العروي إلى الإصلاح وتبنِّي الحداثة بطريقته، كان يدعو إلى الإصلاح في الوطن العربي وإمكانيَّة الخروج من المأزق التاريخي، فكان يعالج مسألة حيويَّة تتكرَّر في نصوصه بأشكال مختلفة يتعلَّق الأمر بمفهوم الأصالة ومرفقاته.[30]

إذاً فقد كان تركيز كلٍ من الجابري واركون والعروي، قائم على إيجاد آليَّات خاصة لاستقبال الحداثة، ولا ترفض الحداثة الأوروبيَّة في ذاتها، في حين أنَّ طه عبد الرحمن، قدَّم البديل لها الذي تجلَّى في تأسيس حداثة إسلاميَّة أخلاقيَّة، تنتقد كافَّة الرؤى الفلسفيَّة التي طرحت الحداثة في الفكر العربي المعاصر، ففي كتابه سؤال الأخلاق أشار فيه إلى تسمية الحداثة الغربيَّة بحضارة القول، باعتبار أنَّها آثرت القول على الفعل، مشيراً في ذلك بقولة: "لما كانت الأفعال هي بالذات الجانب السلوكي من الإنسان كما أنَّ الأقوال هي الجانب النطقي فيه، تطرَّقت هذه الأضرار إلى الكيان الخلقي للإنسان فكانت بمنزلة مظاهر جليَّة من ظلم الحضارة الحديثة للإنسان، فقد آثرت القول على الفعل بغير حق واسندت إلية وظائفه.[31] منتقداً أنصار الحداثة الغربيَّة ففي نظره أنَّهم تكلَّموا عن واقع الحداثة في الوقت الذي لم يتطرَّقوا إلى روح الحداثة التي هي في نظره مجموعة القيم والمبادئ التي يكون الواقع تجسيداً لها. بقوله حول ذلك: "بأنَّه يجب أن نبحث عن الحداثة كقيم لا يجب أن نبحث عن الحداثة كواقع، واقع الحداثة قائم لا ننكره وتتصل به وننقده وننقل عنه، وما إلى ذلك، ولكن ليس

تقليد هذا الواقع هو الذي يدخلنا إلى الحداثة المرجوة، فلا بد أن نبحث عن هذه القيم التي يعد الواقع تحقيقاً لها.[32]

وفي هذا الصدد أشار محمد الشيخ بقولة" إن روح الحداثة هي قيم كونيَّة، لكن دافع الحداثة هي تطبيق محلي ليس كوني، ثمة ضربين من الكونيَّة، كونيَّة سياقيَّة، ومبناها، على أنَّ الشيء وإن هو أبدع في مكان ما فقد يعاد إبداعه في مجتمع آخر، ومثال ذلك، حقوق الإنسان كونيَّة غير سياقيَّة، ومعناها أنَّ الشيء إن هو أبدع في مجتمع فإنَّه لا يبدع في مجتمع آخر بل يؤخذ على أصله.[33] فأنصار الحداثة في نظره لم يتحرَّروا من الحداثة المقلِّدة، فالشرط الأساسي لديه هو التحرُّر من الحداثة المقلِّدة وتحقيق الحداثة المبدعة، أي الخروج من ضيق حداثة الزمان إلى سعة حداثة القيم،[34] أي مطلب طه عبد الرحمن الخروج من واقع الحداثة وتطبيقاتها الغربيَّة إلى روح الحداثة في قيمها الإنسانية.

فكان كتابه روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلاميَّة دعوة صريحة بتعدُّد واقع الحداثة بقوله" كما أنَّ هناك حداثة غير إسلاميَّة، كذلك ينبغي أن تكون هناك حداثة إسلاميَّة.[35] فالخصائص التي تميِّز روح الحداثة جعلها في مجموعة مبادئ، التي يرى أنَّه من المفترض على الواقع الحداثي أن يحققها فهي متمثِّلة في الآتي:

أولاً: مبدأ الرشد:

يشير فيه إلى عدم قبول وصاية أحد على تفكيرك، فهذا المبدأ يتفق مع الحداثة ومع التصوُّر التداولي الإسلامي، فمبدأ الرشد أساسي للخروج من حالة القصور إلى حالة النضج- ويعني بالقصور هو التبعيَّة للآخرين، فتكون حداثتهم مقلِّدة ولا رشد مع التقليد [36] قاصداً من ذلك أن نفكر في أنماطنا الحضاريَّة من دون أن يفكر الآخر بدلاً منَّا.

ثانياً: مبدأ النقد

وهو الانتقال من حالة الاعتقاد إلى الانتقاد، فقد يحصل النقد بواسطة الخبر النقلي وليس بواسطة الدليل العقلي ممَّا يجعل مبدأ النقد هو المبدأ الأعم.[37] أي قصد طه عبد الرحمن بذلك إخضاع كل الإمكانيَّات الفكريَّة والثقافيَّة إلى عمليَّة النَّقد والتمحيص، وليس المقصود هنا التوجُّه لنقد التُّراث الإسلامي بحجة أنَّ الحداثة الغربيَّة بدأت بنقد التُّراث المسيحي بل المقصود أن نبدأ بنقد التُّراث الحداثي ذاته مع الحفاظ على فكرنا وتراثنا الإسلامي.

ثالثاً: مبدأ الشمول

وهو ما تتَّصف به الحداثة بأنَّها تنتشر في المجتمعات لكنها ليست مخصوصة بمجتمع أو مجال معين، [38] أي تأسيس رؤية شاملة في النظر إلى الأشياء والعالم لتشمل كافَّة مجالات الحياة الإنسانيَّة وليست محصورة بمجال معيَّن أو مجتمع معيَّن، من هنا ينطلق طه عبد الرحمن إلى ضرورة الوعي بأصالة روح الحداثة رافضاً ادعاءات بعض المفكِّرين العرب بأنَّ روح الحداثة روح غربيَّة خالصة، الأمر الذي أثبتته الدراسات بأنَّ المبادئ الثلاثة طبَّقتها كل المجتمعات التي أسست حضارات عبر التاريخ الإنساني بقوله "ليست روح الحداثة كما غلب على الأذهان من صنع المجتمع الغربي الخاص، حتى كأنَّه أنشأها من عدم، وإنَّما هي من صنع المجتمع الإنساني في مختلف أطواره، إذ أنَّ أسبابها تمتد بعيداً في التاريخ الإنساني الطويل.[39] فالاختلاف بين المجتمعات يرجعه طه عبد الرحمن إلى تطبيقات هذه المبادئ لا إلى أصالتها، فالوعي بأصالة روح الحداثة يُسهم في إمكانيَّة تأسيس حداثة عربيَّة مختلفة تماماً عن الحداثة الغربيَّة وغير تابعة لها، منطلقة من خصوصيتها الدينيَّة والثقافيَّة والسياسيَّة العربيَّة بقوله" ليست روح الحداثة ملكاً لأمة بعينها غربيَّة كانت أو شرقيَّة، وإنَّما هي ملك لكل أمة متحضرة، أي نهضت بالفعلين المقومين لكل تحضُّر، وهما الفعل العمراني، وهو الجانب المادي من هذا التحضُّر، والفعل التاريخي الذي هو الجانب المعنوي منه."[40]

المبحث الرابع: التطبيق الإسلامي لروح الحداثة عند طه عبد الرحمن:

يسعى طه عبد الرحمن إلى شروط التطبيق الإسلامي لروح الحداثة أي الانطلاق من روح الحداثة نفسها من أجل ابداع حداثة إسلامية مع رفض تقليد الحداثة الغربيَّة وتجاوزها، من منطلق أنَّه لا وجود لحداثة عربيَّة ما دامت مقلِّدة وليست مبدعة، وهذا ما قام به مفكرو العرب بقوله حول ذلك."إنَّه لاوجود لحداثة عربيَّة؛ فالحداثيون العرب هم أصلاً مقلِّدون صريحون."[41] من هنا يأتي تميُّز طه عبد الرحمن بروح الحداثة التي تنبني على مجموعة من الأسس وهي أنَّها حداثة قيم وليست حداثة زمن، بالتالي فهي لا تنفصل عن قيم التراث بل ترتكز على الدين الإسلامي وارتكازها على هذه الروح هو الذي سيجعلها حداثة لا تفصل بين المادة والروح، ولا بين العقل والدين، ولا بين الإنسان والغيب.[42]

فتكون بذلك حداثة لتلبية الحاجات الروحيَّة لا المادية، وهذا ما جعل طه عبد الرحمن يميِّز بين واقع الحداثة وروحها، فالحداثة الغربيَّة خالية من الروح الإسلاميَّة ممَّا وجب التوجُّه بها إلى النقد وكشف الجوانب السلبيَّة فيها، الأمر الذي دفع طه عبد الرحمن إلى السعي لإقامة حداثة إسلاميَّة تعطي الحق للمسلمين في الإبداع

انطلاقاً من روح الحداثة نفسها، منطلقة بجوانبها الروحيَّة والأخلاقيَّة، فما كان منه إلَّا أنَّ وضع عدَّة شروط للتطبيق الإسلامي لروح الحداثة منها:

أولاً: اجتناب آفات التطبيق الغربي لروح الحداثة:

أشار إلى أنَّ العقل العربي مطالب بوعي نقدي بالآفات التي انتهت إليها روح الحداثة في المجتمعات الغربيَّة مع تجنُّب الأخذ بها في الحضارة الإسلاميَّة فيرفض طه عبد الرحمن العديد من التيارات الفلسفيَّة الغربيَّة التي تقوم على هذه الآفات التي جلبتها الحداثة.[43]

ثانياً: اعتبار الحداثة تطبيقاً داخليَّاً لا تطبيقاً خارجيَّاً:

أي أنَّه يرفض عمليَّات التحديث الخارجة عن المجتمع نفسه، فيجب أن تنبع الحداثة من الذات المجتمعيَّة لكل المجتمعات.(44)

ثالثاً: اعتبار الحداثة تطبيقاً إبداعيَّاً لا تطبيقاً اتباعيَّاً:

أصرَّ طه عبد الرحمن في دراساته على أن يكون الحداثي مبدع لا مقلِّد، فما يتبع مرحلة الإبداع هي مرحلة الاستقلاليَّة عن الغير، والاستقلاليَّة تتبعها فكر مستقل ومبدع لا يقف في مجال واحد وإنَّما تتوسَّع أفعاله إلى مختلف المجالات.[45] فلا يمكن للحداثة إذا شاءت أن تكون أخلاقيَّة أن تستغني عن الإسلام الذي سيمنحها تلك الروح التي فقدتها في المجتمعات الغربيَّة.[46]

فانطلاقة طه عبد الرحمن كانت بضرورة الاختلاف الفكري والخروج من مرحلة التبعيَّة والتقليد الى مرحلة الابداع وفق مبادئ روح الحداثة، فهناك فرق بين روح الحداثة بمبادئها الثلاثة، مبدأ الرشد، ومبدأ النقد، ومبدأ الشمول، وبين واقعها التطبيقي كما يتجلى في المجتمعات الغربيَّة، فالأخذ بهذا الفصل بين روح الحداثة وواقعها يسهم في تأسيس لحداثة إسلاميَّة خاصة بالمجتمعات العربيَّة، إذ يعد مشروعة نقدي ينتقد التبعيَّة والتقليد للحضارة الغربيَّة، مع مناداته بضرورة الاجتهاد والإبداع والمساهمة في تحقيق حداثة عربيَّة إسلاميَّة.

الخاتمة:

حاول طه عبد الرحمن من خلال تناوله لقضية الحداثة إلى بلورة رؤية مختلفة لهذه القضيَّة من خلال ما طرحه في كتابيه (روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلاميَّة) والكتاب الآخر (سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربيَّة) حيث إنَّ نقده لفهم الحداثة ليس الهدف منه هدم مفهومها بالكيفيَّة التي صار

متداولاً بها في الفكر العربي وإنَّما هدفه تأسيس لحداثة بديلة مختلفة تماماً عمَّا جاء به الفكر الغربي، من منطلق إشارته في الكتابين بأنَّ هناك حداثة غير إسلاميَّة، إذاً ينبغي أنْ تكون هناك حداثة إسلاميَّة، معلناً أنَّ حقيقة الحداثة هي الفعل المبدع، منطلقاً من رفض ما جاء به المقلِّدة من المتقدِّمين والمتأخِّرين للحداثة الغربيَّة في كونها متصلة بالعقلانيَّة والعلمانيَّة، في الوقت الذي بإمكان الفكر العربي الإسلامي أنْ ينتج حداثته بإبداعه بدءاً من إبداع مفاهيمه وتحديد آليَّات تفكيره، إنَّ الحداثة التي بشر بها طه عبد الرحمن هي حداثة داخليَّة بروح أخلاقيَّة بديلة وفق رؤى وتجليَّات إيمانيَّة غرضها هو إقدار العربي على التفلسف وفق منظور طه عبد الرحمن، وداخل نطاق أمة إسلاميَّة لها شريعة إلهيَّة تستند عليها، وفقاً لذلك الحداثة عند طه عبد الرحمن هي روح، فقد اهتم بروح الحداثة لا بواقعها لأنَّ روح الحداثة صالحة لكل زمان ومكان، وتقوم على ثلاثة مبادئ: مبدأ الرشد، مبدأ النقد، مبدأ الشمول، وروح الحداثة هذه جعلها منفصلة عن الحداثة وهي قائمة على الأخلاق التي هي قيمة مركزيَّة ولا تفصل عن الدين الإسلامي.

الهوامش والتعليقات:

*الدكتور طه عبد الرحمن (1944 م) مفكِّر مغربي، وُلد في مدينة الجديدة بالمغرب عام 1944 م، وبها درس دراسته الابتدائية، ثم تابع دراسته الإعدادية بمدينة الدار البيضاء، ثم بجامعة محمد الخامس بالرباط، حيث نال إجازة في الفلسفة، واستكمل دراسته بفرنسا بجامعة السوربون، حيث حصل منها على إجازة ثانية في الفلسفة ودكتوراه السلك الثالث عام 1972 برسالة في موضوع "اللغة والفلسفة : رسالة في البنيات اللُّغويَّة لمبحث الوجود"، ثم دكتوراه الدولة عام 1985 عن أطروحته "رسالة في الاستدلال الحجاجي والطبيعي ونماذجه". درَّس المنطق في جامعة محمد الخامس بالرباط منذ بداية السبعينيَّات. حصل على جائزة المغرب للكتاب مرتين، ثم على جائزة الإسيسكو في الفكر الإسلامي والفلسفة عام 2006. وهو أستاذ زائر بعدة جامعات مغربية، ورئيس "منتدى الحكمة للباحثين والمفكرين" الذي تأسَّس في المغرب بتاريخ 9 مارس 2002.

الدكتور طه عبد الرحمن – فلاسفة العرب

http://www.arabphilosophers.com ›

1_ عبد المجيد، خليفي، قراءة في مشروع محمد اركون الفكري، ط 1، منتدى المعارف، بيروت، 2011، ص13

2_ طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ط 1، الشبكة العربيَّة للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2013، ص97-98.

3_ طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص 60.

4_ المرجع السابق، ص 60.

5_ محمد عابد الجابري، نحن والتراث قراءات في تراثنا الفلسفي، ط 6، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص 20.

6_ عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ط 1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2006، ص 34.

7_ طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، 2000، ص 14.

8- دواودي جهيدة، مقومات الحداثة عند طه عبد الرحمن، 2015، رسالة ماجستير، جامعة عبدالحميد- باديس مستغانم، كلية العلوم الاجتماعيَّة، قسم الفلسفة، ص 56.

9- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، مرجع سابق، ص 170.

10_طه عبد الرحمن، بؤس الدهرانية، ط 2، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2014، ص29.

11_ المرجع السابق، ص29.

12_ المرجع السابق، ص 29-30 .

13- طه عبد الرحمن، شرود ما بعد الدهرانية، ط1، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، لبنان، 2016، ص16.

14- طه عبد الرحمن، الحوار افقاً للفكر، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص2013، ص 99.

15- طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص 68.

16- يوسف بن عدي، ، مشروع الإبداع الفلسفي- قراءة في أعمال طه عبد الرحمن، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2012، ص 12.

17- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، مرجع سابق، ص 34-35 .

18- أحمد الفراك، سؤال الحداثة في الفكر العربي المعاصر، قراءة في كتابات طه عبد الرحمن، العدد 9-10، ص 1.

19- طه عبد الرحمن، الحوار افقاً للفكر، ص 104.

20- يوسف بن عدي، مشروع الإبداع الفلسفي- قراءة في أعمال طه عبد الرحمن، ص 22.

21-المرجع السابق، ص 23.

22- طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ص 106.

23- المرجع السابق، ص 105.

24- طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص11.

25- المرجع السابق، ص 11.

26- طه عبد الرحمن، ط 1، الحداثة والمقاومة، معهد المعارف الحكمية، سنتر صولي، 2007، ص 22.

27- مسرحي قارح، الحداثة في فكر محمد اركون، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، 2006، ص43.

28- محمد عابد، الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، ط 1، المركز الثقافي العربي، 1991، ص16.

29- محمد اركون، قضايا في نقد العقل الديني- كيف نفهم الإسلام اليوم، ت، هاشم صالح، ط3، دار الطليعة، بيروت، 2004، ص 212.

30- مصطفى الغرافي، الحداثة والفكر التاريخي عند عبدالله العروي، ديوان العرب، 2016، ص 1.

31- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، ص78.

32- طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ص 82.

33-محمد الشيخ، جاذبية الحداثة ومقاومة التقليد، ط 1، دار الهادي، لبنان، 2005، ص 210.

34- طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ص 81.

35- طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ص 17.

36- طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ص 83.

37- المرجع السابق، ص 83.

38- المرجع السابق، ص 84.

39- طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ص 30-31.

40- المرجع السابق، ص 31.

41- طه عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، ص 104.

42- محمد الشبه، التطبيق الإسلامي لروح الحداثة عند طه عبد الرحمن، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، مؤسسة دراسات وأبحاث، مجلة مؤمنون بلا حدود، 2016، ص 2-3.

43- طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ص 32.

44- المرجع السابق، ص34.

45- المرجع السابق، ص 34.

46- محمد الشبه، التطبيق الإسلامي لروح الحداثة عند طه عبد الرحمن، ص 3.